بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وآله الطيبين الطاهرين

واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين

قال الله تبارك وتعالى: **{خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**[1].

يقعُ البحثُ عن مفاهيم الآية المباركة في مقامين:

الأوّل: في الجواب عن شبهة الجبر.

والثاني: في تحليل مفردات الآية المباركة.

المقامُ الأوّل: في الجواب عن شبهة الجبر.

قد استدل جمعٌ مِن الأشاعرة بهذه الآية المباركة على الجبر والتكليف بما لا يطاق؛ حيثُ إنّ الآية نسبت إلى الله تبارك وتعالى أنّه ختم قلوب الكافرين وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غِشاوة، وهذا يعني أنّه سبحانه وتعالى هو الذي منعهم مِن الهداية، فإذا كان تبارك وتعالى هو الذي منعهم مِن الهداية فتكليفُهُ إياهم بالطاعات والبُعْد عن المعصية تكليفٌ بما لا يطاق؛ حيثُ لا يمكنهم بَعْدَ مَنْع الله تعالى لهم مِن الهداية أنْ ينفتحوا على الطاعة.

وأجاب جملةٌ مِن الأعلام عن هذه الشبهة بأحد وجهين: وجهٍ عقلي، ووجهٍ نقلي.

أمّا الوجه الأوّل: الوجه العقلي.

فهو يبتني على تحليل العلاقة بين إرادة الله عزّ وجلّ وإرادة العبد.

ولذلك بيانان: الأوّل: إجمالي. **والثاني**: تفصيلي.

البيانُ الإجمالي: هل أنّ المقتضي للتأثير في فعل الإنسان بالأصالة هو إرادة العبد أو المقتضي بالأصالة هو إرادة الله تبارك وتعالى؟

وفي المقام مسلكان: الأوّل: مسلك المتكلمين. **والثاني**: مسلك أهل المعقول.

[1] سورة البقرة، 7.

المسلك الأوّل: مسلك المتكلمين.

أنّ علاقة إرادة الله سبحانه وتعالى بإرادة العبد علاقة المانع والمقتضي.

وبيانُهُ: أنّ المقتضي للفعل هو إرادة العبد، ونسبة إرادة الله سبحانه وتعالى عند اتفاقها مع إرادة العبد نسبة الشرط، وعند الاختلاف نسبةُ المانع، فإذا أرادَ العبدُ المخلوقُ فعل شيء سواءً كان إطاعةً أم معصيةً فإرادته لولا المانع هي تمامُ المقتضي لإيقاع ذلك الفعل، واختيارُ الإنسان لولا المانع هو تمام المُوجب لتحقّق ذلك الفعل، أي: أنّ الفعل الصادر من الإنسان يستندُ في ترشحه وتحقّقه إلى إرادة الإنسان وإنّما إرادةُ الله تبارك وتعالى بمثابة الشرط أو المانع، أي: أنّ الله سبحانه وتعالى إمّا أنْ يفسح المجال أمام إرادة الإنسان فيكون حينئذٍ شرطاً في فعلية التأثير، أو يضع حواجز أمام إرادة الإنسان فيكون مانعاً، وإلّا لو خلي الإنسان لكانت إرادته هي مصدر أفعاله إلّا أنّ رحمة الله تبارك وتعالى تارةً تشكل مانعاً فقد يريد الإنسان المعصية إلّا أنّ اللطف الإلهي يتدخل فيمنعه عن مزاولة المعصية، إمّا بأنْ يصرفه نفسياً، أو يضع أمامه عوائق وموانع تحول بينه وبين فعل المعصية، فإرادة الله تبارك وتعالى بمنزلة المانع مِن تحقيق المقتضي لمقتضاه وأثره، وبالتالي لا جبر في المقام؛ لأنّ تمام المسؤولية ترجع إلى إرادة الإنسان لا إلى إرادته تبارك وتعالى.

وقد استند في مِثل هذا المسلك إلى قوله تبارك وتعالى: **{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}**[2] أي: أنّ الإرادة المتحكمة في الإطاعة والزيغ هو إرادتهم، لكن الله تبارك وتعالى لما رآهم أنّهم أرادوا الزيغ رفع رحمته تعالى عنهم فزاغوا.

المسلك الثاني: مسلك أهل المعقول.

وهو أنّ العلاقة بين إرادة الله تعالى وإرادة الإنسان إرادة المقتضي والشرط، أي: أنّ المقتضي للفعل هو إرادة الله تعالى – لا إرادة الإنسان –، وإنّما إرادة الإنسان بمنزلة الشرط ليس إلّا؛ وذلك باعتبار أنّه في ساحة الوجود كُلّه ومنه وجودُ الإنسان لا يمكن أنْ يقع فعلٌ لَمْ تتعلق به الإرادة الإلهية، فمصدرُ جميع الأفعال هو الله تبارك وتعالى؛ وذلك لأنّ الفعل – حتى لو كان فعل الإنسان – هو وجودٌ ومصدرُ الوجود واحدٌ وهو الله تبارك وتعالى، فبما أنّ مصدر الوجود واحد وفعلُ الإنسان مِن هذا

[2] سورة الصف، 5.

الوجود فمصدر أفعال الإنسان هو الله تبارك وتعالى استناداً لقوله عزّ وجلّ: **{هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ}**[3]، فلا يُعقل أنْ يوجد خالقٌ بمعنى فاعل – أي: مصدر للوجود – إلّا الله تبارك وتعالى حتى لو كان الفعلُ فعلَ الانسان، وإنّما إرادة الله عزّ وجلّ للفعل منوطةٌ باختيار الإنسان.

كما لو فرض أنّ الإنسان عَزَمَ على فعلٍ معينٍ – كما لو عزم على أداءِ الصلاة أو عزم على ارتكاب المعصية – فدورُ إرادة الله سبحانه وتعالى حينئذٍ دور الخالق والصانع لما عزم عليه الإنسان بشرط استمرار اختياره للفعل كالصلاة، فهو تعالى مصدرُ الوجود وإرادةُ الإنسان بمنزلة الشرط، أي: أرادَ الله سبحانه وتعالى صدورَ هذا الفعل بشرط أنْ يختارَ الإنسانُ صدورَهُ.

والنتيجة: أنْ لا جبر على الإنسان؛ فإنّ مصدرَ الأفعال وإنْ كان هو تبارك وتعالى لكنه لَمْ يُصدر الأفعال حتماً؛ وإنّما أصدر الأفعال بشرطٍ، والشرطُ هو اختيار الإنسان وإرادته، واستند في ذلك لقوله تبارك وتعالى: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}**[4].

وسيأتي تنقيح المسلك الأصح مِن هذين المسلكين عند عرض البيان التفصيلي للجواب.

وأمّا الوجه الثاني: الوجه النقلي.

ففيه عدّة اتجاهاتٍ تتعلّق بتفسير الآية المباركة التي هي محل البحث:

الاتجاهُ الأوّل: أنّ مفاد الآية المباركة وهي قوله تبارك وتعالى: **{خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**[5] هو الختم الابتدائي، بمعنى أنّ الله تبارك وتعالى خَتَمَ على قلوبهم ابتداءً منهُ تبارك وتعالى؛ لما ورد عن أمير المؤمنين عليٍّ (صلوات الله وسلامه عليه): (سبق في علمه أنهم لا يؤمنون فختم على قلوبهم وسمعهم، ليوافق قضاؤه عليهم علمه فيهم، ألا تسمع إلى قوله: **{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ}**[6])[7]، فحيثُ عَلِمَ الله سبحانه وتعالى مِن البدء أنّ هؤلاء لا

---

[3] سورة فاطر، 3.

[4] سورة التكوير، 29.

[5] سورة البقرة، 7.

[6] سورة الأنفال، 23.

[7] مجمع البحرين، تأليف فخر الدين الطريحي، ج1، ص622.

يؤمنون وبأيِّ وسيلةٍ لا يطيعون، فلعلمه مِن البدء بذلك خَتَمَ على قُلُوبهم وعلى سَمْعِهِم وعلى أَبْصَارِهم غِشَاوَةٌ.

ولعلّ هذا ما أُشير إليه في الحوار بين نبيّ الله موسى والعبد الصالح الخضر (عليهما السلام) في القرآن الكريم؛ حيثُ إنّه قد ذكر القرآنُ عنهما في مسيرتهما كما في قوله عزّ وجلّ في قضية قتل الغلام: **{فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا}**[8].

ثمّ قال تعالى على لسان العبد الصالح: **{قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا}**[9].

إلى أنْ قال: **{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}**[10].

فإنّ ظاهر قوله تعالى: **{فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ}** أنّ الخضر قد صدر منه فعل القتل ابتداءً.

ومفاد قوله تعالى: **{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}** أنّ الخضر إنّما سبق بالفعل قَبل الذنب فقتل الغلام قبل بلوغه وكفره لُطفاً بأبويه، ولا مانع أنْ يُوقع الله تبارك وتعالى ألماً وحدثاً على شخصٍ لُطفاً ورحمةً به وبأشخاصٍ آخرين، فقتله مِن جهة حجزه عن ارتكاب الكفر بعد بلوغه الذي مصيره العقوبة بدخول النار، وهذا مِن الرحمة الإلهية به، ومنع وقوع الأذى والألم على أبويه لو بقي كافراً، فإنّ ألم الأب المؤمن مِن كُفر الأبناء أشد مِن ألم فقدهم، وهذه سُنّة مِن السنن الإلهية فإنّه قد تقع مصيبة على قوم وتكون إيجابياتها نفعاً لقومٍ آخرين.

فكذلك حال الكفار في الآية المباركة، حيثُ إنّ الله تبارك وتعالى علم أنّهم لنْ يؤمنوا سواءً فَتَحَ لهم المنافذ وأعطاهم الفرص أم لا، كما أكدت الآية المباركة السابقة في قوله سبحانه وتعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ**

---

[8] سورة الكهف، 74 – 76.

[9] سورة الكهف، 78.

[10] سورة الكهف، 80 – 81.

كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[11]، لذلك مِن الإبتداء أغلق عليهم منافذ النور لُطفاً بالمؤمنين، بأنْ خَتَمَ على قُلُوبهم وعلى سَمْعِهِم وعلى أَبْصَارِهم غِشَاوَةٌ فإنّهم إذا عرفوا بالعناد والكفر لَمْ يصل خطرهم الفكري للمؤمنين.

الاتجاهُ الثاني: أنّ مفاد الآية المباركة صدورُ فعلٍ مِن الله تبارك وتعالى على سبيل العقوبة.

بمعنى: أنّهم لما كفروا وأصروا على الكفر كانت العقوبة لكفرهم أنّه خَتَمَ على قُلُوبهم وعلى سَمْعِهِم وعلى أَبْصَارِهم غِشَاوَةٌ، فالختمُ عقوبةٌ لفعلهم؛ فإنّ العقوبات تارةً تكون عقوبة دنيوية، وأُخرى تكون عقوبة أُخروية، والعقوبةُ الدنيوية قد تكونُ مصائباً وقد تكونُ ظلاماً في القلب واسوداداً في النفس وضيقاً وحرجاً في الصدر، فهي عقوبةٌ على الكفر مِن قَبيل العقوبات الدنيوية وبهذا المعنى جاءت هذه الآية المباركة.

وبهذا المضمون جاء قوله تبارك وتعالى: **{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}**[12] فإنّه قد طَبَعَ على قلوبهم بسبب كفرهم.

الاتجاهُ الثالث: أنّه فعلُ الله سبحانه وتعالى ولكن مِن باب العاقبة – لا العقوبة –.

ومعنى ذلك: أنّ نتيجة العناد والإصرار على الكفر والإعراض عن الإيمان بصيرورة طبيعية صارت قلوبهم مغلقةً وأسماعهم صماً وأبصارهم عمياء، فكان ذلك بمنزلة النتيجة الوضعية لأفعالهم، فكما لو أنّ الإنسان شرب الخمر فإنّه يُصاب بالسكر، وإصابته بالسكر لَمْ تقع إلّا بإذنه تبارك وتعالى، إلّا أنّ إصابته بالسكر نتيجةٌ طبيعيةٌ لشربه إلى الخمر، فكذلك هؤلاء حيثُ أصروا على العناد والكفر فالنتيجةُ الطبيعيةُ الوضعية لإصرارهم وعنادهم أنّه خُتم على قلوبهم.

والتعبيرُ بـ "الختم" في قوله تعالى: **{خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}** إشارةٌ إلى الإغلاق، كما يُختم على الظروف حتى لا يطلع عليها أحد، وأمّا "الغشاوة" فهي على وزن فعاله، بمعنى: الغطاء الذي يحجبُ النظر.

---

[11] سورة البقرة، 6.

[12] سورة النساء، 155.

وقد روى ابن بابويه (عليه الرحمة) عن إبراهيم بن أبي محمود عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام): (**وقال: سألته عن قول الله عزّ وجل: {خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ}**[13] **قال: (الخَتمُ هُوَ الطَّبْعُ على قُلوب الكُفَّارِ عُقُوبةً على كُفرهم، كما قال عزّ وجلّ: {بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}**[14]**))**[15].

الاتجاهُ الرابع: أنّه لا يوجد ختم مِن الله عزّ وجلّ ولا تغطية منه تبارك وتعالى؛ وإنّما هذا التعبيرُ تعبيرٌ مجازي مِن باب الاستعارة والتمثيل؛ حكاية عن حالة الظلمة التي طغت على قلوبهم، لا أنّ الله سبحانه وتعالى صدر منه ختم وغشاوة بالنسبة إليهم، فهذه الآية المباركة نظيرُ قوله تبارك وتعالى: **{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}**[16] فهذه الحواجز والفواصل قد وضعها الكفار هم لأنفسهم، أي: أنّ ما حصل إنّما هو ظلمةٌ أحدثوها في قلوبهم وغشاوة جعلوها على أبصارهم، لكن الله تبارك وتعالى مِن باب الاستعارة التمثيلية عبر عن ذلك بقوله: **{خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}**.

ومما يؤكد ذلك ظواهرُ بعض الآيات الكريمة والروايات الشريفة:

أمّا مِن الآيات المباركات:

فقوله تبارك وتعالى: **{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}**[17]، أي: أنّ القلب هو أعمى لا أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي أعماه.

وأمّا من الروايات الشريفة:

فما روي في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليٍّ (صلوات الله وسلامه عليه): (**ومن كلام له (عليه السلام) قاله عند تلاوته: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ}**[18] **(إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الذّكر جلاءً للقلوب، تسمعُ بِهِ بَعْدَ الوَقْرَة، وتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ العَشوة،**

---

[13] سورة البقرة، 7.

[14] سورة النساء، 155.

[15] عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، للمحدث الكبير الشيخ الصدوق، مجمع البحوث الإسلامية، ج1، الباب 11، ح16.

[16] سورة فصلت، 5.

[17] سورة الحج، 46.

[18] سورة النور، 36 – 37.

وتَنْقاد بِهِ بَعْدَ المُعاندة، وما بَرِحَ لله – عزَّتْ آلاؤُهُ – في البُرهةِ بَعْدَ البُرهة، وفي أزمان الفترات، عبادٌ ناجاهم في فكرهم، وكلَّمَهُم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظةٍ في الأبصار والأسماع والأفئدة، يُذكِّرونَ بأيَّام الله، ويُخوِّفُونَ مقامه) إلى آخر كلامه (عليه السلام)[19]، أي: إذا انفتح الإنسانُ على الذكر سَمِعَ وأبصر وانقاد.

وظاهرُ الكلام – في الآية أو الرواية – أنّ في قُوى النفس ما يعادل القوى الجوارحية، فكما أنّ الإنسان على مستوى الجوارح يمتلك بصراً، وسمعاً، وقلباً صنوبرياً هو عبارةٌ عن مضخة دمٍ بين الدماغ وسائر شرايين الجسم وأوردته وخلاياه، فكذلك النفس لها قُوى فلها بصرٌ باطني، وسمعٌ باطني، وإدراكٌ باطني مماثلٌ للإدراك الظاهري، وبيد الإنسان فتحُ ذلك البصر والسمع والإدراك الباطني وبيده إغلاقه.

وهذا هو ما نراه في أنفسنا؛ فإنّنا جميعاً إذا جلسنا بيننا وبين أنفسنا وصرنا نفكرُ في بعض الأمور، فكأنّنا نسمع أصواتاً ونبصر أشياءً، وكأنّ قلوبنا تُحدثُنا بأمورٍ، مما يكشفُ عن أنّ لنا بصراً وسمعاً وإدراكاً باطنياً مماثلاً للإدراك الظاهري.

وهذا ما أرشدتْ إليه الآية المباركة وهي قوله تبارك وتعالى: **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}**[20]، أي: أنّهم باختيارهم لا يفقهون بتلك القلوب، ولا يبصرون بتلك الأعين، ولا يسمعون بتلك الآذان، مع أنّ الآذان تسمع والأعين تُبصر لكن الإدراك الباطني أعمى.

وكذلك أشار سبحانه وتعالى إلى هذه الحالة الموجودة عند الإنسان بقوله عزّ وجلّ: **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}**[21].

---

[19] نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية الدكتور صبحي الصالح، دار الكتاب المصري / القاهرة – الخطبة رقم 222، ص342.

[20] سورة الأعراف، 179.

[21] سورة الإسراء، 18 – 20.

وقال تبارك وتعالى: **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}**[22].

وبناءً على هذا التحليل يردُ السؤالُ: لماذا أسندَ الله تبارك وتعالى الختمَ إليه مع أنّ الأمر كُلّه بيد الإنسان فهو الذي أعمى بَصَرَ نفسه، وهو الذي أصمَ سمعهُ بنفسه؟

والجوابُ عن ذلك: لأنّهُ لا يقع فِعْلٌ في عالمِ الوجودِ إلّا بإذنه تبارك وتعالى، كما قال عزّ وجلّ: **{لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}**[23]، فإنّه ليس المقصودُ بالشفاعة هنا خصوصُ الشفاعة الأُخروية – أي: أنّهُ لا تَقَعُ شفاعةٌ في الآخرة إلّا بإذنه –؛ بل تشمل حتى الشفاعة في عالمِ الوجود، بمعنى: لا يشفعُ لأيِّ إنسانٍ أنْ يَصدُر منهُ فِعْلٌ إلّا بإذنه تبارك وتعالى، وقال تعالى ذكره: **{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[24]، وقال سبحانه: **{لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[25]، وقال عزّ وجلّ: **{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[26].

فلا يَقَعُ شيءٌ إلّا بإذنه تبارك وتعالى، لكن إذنه سبحانه تارةً على سبيل الفعل وتارةً على سبيل التخلية.

والمرادُ مِن التخلية: هو حبس اللطف عن الإنسان؛ فإذا أصر الإنسان على العناد حبس الله تعالى لطفه عنه، فإذا حبس لطفه عنه فكأنّ الله هو الذي أضله وختم على سمعه، فهذا مجرد تعبيرٍ مجازي، وإنّما الحقيقة أنّ الله سبحانه حبس لطفه أنْ يصل إليه، كما قال الله تبارك وتعالى: **{أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**[27] فإنّ المقصود هو أنّ الأوّل صارَ موضعاً للطف، بينما الثاني حبس عنه اللطف، وكُلُّ ذلك مرجعهُ في الأخير إلى اختيار الإنسان وإرادته، كما قال تبارك وتعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ**

---

[22] سورة الجاثية، 23.

[23] سورة البقرة، 255.

[24] سورة الحديد، 2.

[25] سورة التغابن، 1.

[26] سورة الملك، 1.

[27] سورة الأنعام، 122.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[28]، والضميرُ في قوله: **{مَن يَشَاءُ}** يعودُ على الإنسان – لا إلى الله سبحانه وتعالى - بقرينة السياق؛ فإنّ الإنسان هو مَن يشاء الضلالة وهو مَن يشاء الهداية فيضله ويهديه جلّ وعلّا، فالإنسانُ يشاء الهداية فيهديه الله تعالى، وهو يشاءُ الضلالة فيُضِلُّهُ الله تعالى.

وقوله سبحانه: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}** أي: بنسقٍ واحد إمّا مؤمنين أو ضالين، ولكنه تعالى يُضِلُّ مَن يشاءُ مِنكمُ الضلال ويَهْدِي تعالى مَن يشاءُ مِنكمُ الهداية.

وقد جاءت آياتٌ عديدة في الإشارة إلى ذلك:

1 – كقوله عزّ وجلّ: **{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}**[29].

2 – وقوله سبحانه وتعالى: **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}**[30].

3 – وقوله تبارك وتعالى: **{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}**[31].

والنتيجة: أنّ الإرادة مِن الإنسان، فإذا أرادَ الإنسانُ وأصر على الضلال وصل إلى مرحلةٍ مِن الظلمات والغواية عَبَرَ عنها الله سبحانه وتعالى مجازاً بقوله عزّ وجلّ: **{خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**[32].

والحمد لله رب العالمين.

---

[28] سورة النحل، 93.

[29] سورة الصف، 5.

[30] سورة الحشر، 19.

[31] سورة الزخرف، 36.

[32] سورة البقرة، 7.